التمركز العقدي أو المثاقفة المستحيلة؛ رحلة سيد قطب "أمريكا كما رأيت" في ميزان القيم الإنسانية نموذجا

Doctrinal centering or impossible acculturation; Sayyid Qutb's Journey "America As I Saw" in Balance of Human Values

د. مكي سعد الله/ *mekki saadallah*

أستاذ محاضر "ا"

جامعة العربي التبسي – تبسه

Saadallah_58@yahoo.fr

تاريخ الإرسال:2021/11/22 تاريخ القبول: 2021/12/14. تاريخ النشر: 2022/01/02

ملخص إنّ المثاقفة ثقافة تواصلية بين منجز الأنا والآخر وجسر للتواصل الحضاري والإقرار بالمنجزات في الحقل الحضاري الإنساني ومساهمة في التراكم المعرفي الكوسموبوليتي. ولكن الصراع وفشل التواصل والتعاون والاعتراف بمنجز الاختلاف غالبا ما يكون سببه التمركز العقدي حول عقيدة أو فكرة أو أيديولوجية، وهذا ما أفرزته رحلة سيد قطب إلى أمريكا حيث التمركز العقدي محركا ودافعا للرفض والإقصاء، فقد سيَّرت الأفكار العقدية الرحلة بانتقاء السالب والفاشل والقبيح من كل شيء، بالإضافة إلى تحولها إلى معيار للاحتكام والتقييم والتقويم، فأصبحت الأحكام والنتائج انطباعية معيارية موجهة ومقصورة.

فقد انصاع خطاب سيد قطب في الرحلة إلى أمريكا إلى اكراهات المقامات التراثية والعقائدية والتصورات والتمُثلات السردية للمرويات الكبرى وما تتضمنه من صور نمطية عن الآخر والاختلاف، فجاءت الصورة متوهمة بالمحمولات المسبقة والإدانة المطلقة والرفض القطعي.

كلمات مفتاحية: المثاقفة – سيد قطب – الرحلة– الآخر –التمثلات

Abstract: *Acculturation is a communicative culture between the ego and the other's fulfillments, a bridge for civilized communication, recognition of achievements in the field of human civilization, and a contribution to the cosmopolitan knowledge accumulation.*

However, Conflicts and failure of communication, cooperation and acknowledgment of differences is often caused by the doctrinal focus on a doctrine, idea or ideology, and this is what emerged from Sayyid Qutb's trip to America, where the doctrinal focus was a motivator for rejection and exclusion. In addition to its transformation into a standard for judgment, evaluation and critics, its results became impressionistic, normative, directed and restricted.

Sayyid Qutb's speech on the trip to America was subject to the constraints of traditional and ideological shrines, perceptions and narrative dictates of great narratives, As a result, The picture was delusional with preconceived notions, absolute condemnation, and categorical refusal..

***Key words**: Acculturation – Sayyed Qutb- The Journey- the other – representation.*

مقدمة: الرحلة نحو الآخر: رهان ومشروع.

كانت الصدمة الحضارية مع الغرب بثنائية الصراع، صراعا عسكريا أو تخلفًا تقنياً وتشريعًا مؤسساتيًا إيذانًا باكتشاف الذات العربية لنفسها، ولوضعيتها في التدافع الحضاري، فكانت مرآة الغيرية التشخيص الموضوعي لمأزق النهضة والإجابة الدقيقة لأسئلة التخلف والتقهقر والانهيار رغم الشعارات النظرية الممجِّدة للتاريخ والتراث والمرجعية. فكان الانتقال نحو الشمال أو الغرب أو الآخر المتقدّم رغم كفره ضرورة وحتمية للإطلاع على أسباب تقدّمه واكتشاف آليات نهضته لاستردادها أو تقليدها أو تكييفها لتناسب وتلائم التربة العربية الإسلامية أو حتى استنساخها، فكانت الإرساليات العلمية للطلبة والأدباء والمفكرين والدبلوماسيين نحو فضاءات العالم المتقدّم، مشبعة كل واحدة بأيديولوجيا توجيهية ترى في مبادئها وأسسها مشروعية التأسيس والتأصيل للبناء الحضاري الجديد الذي سوف يُحدث ثورة في المجتمعات العربية باقتلاعها من براثن التخلف والجهل والأمية إلى عوالم الحداثة والمواطنة.

وإذا كانت المقاربات النقدية التقييمية تُرجع فشل المشاريع الليبرالية والاشتراكية والشيوعية إلى اختلاف المناخات السياسية والثقافية والدينية وحتى الأنثربولوجية، فإنّ المشاريع الدينية عامة والإسلامية خاصة، قد انطلقت نحو "الآخر" المختلف بخلفيات (les préjugés) ثقافية وعقائدية وعرقية.

كان الانتقال عشوائيا واندفاعيا وتحوَّلت مع هذا الضرب من الترحال المثاقفة إلى عملية تقويم وتقييم ومحاكمة للمنجز الحضاري الغربي وفق المرجعيات الذاتية والقراءات التراثية الانتقائية التي تؤول التطور التقني باعتباره ((دنيا الكافر المادية)) و((جنته الدنيوية وليس له في الآخرة من نصيب)) « والحاصل، أنهم – دمَّرهم الله – يستعملون أشياء تدهش، سيما من رآها فجأة، وربما اختل مزاجه من اجل ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، كيف تحيلوا على إصلاح دنياهم، حتى أدركوا منها مناهم، واستعملوا لذلك قوانين وضوابط، وفي كل ما يقربهم منها غوابط، وفيه إشارة إلى إن طيباتهم عجلت لهم، وذلك نصيبهم وحظهم، وفيه إشارة إلى أن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة ».[1]

لقد تحوَّل التمركز العقدي إلى عائق يحول دون إمكانية التواصل مع "الآخر" وتفسير مواقفه وتفكيك آليات تطوره والبحث في كيفية تطويعه للطبيعة واستغلاله للآلة و الرأسمال المادي واستثماره للثروة البشرية وصناعة الكفاءات، فبسبب المنهج والمرجعية توالت إخفاقات المشروع العربي الذي لم يتمكّن روّاده من التفريق بين مكوّنات الهوية باعتبارها ميكانيزمات للخصوصية الثقافية وبين البحث في أسباب التطور والتنمية والنهضة، وبمقارنة بسيطة بين الرحَّالة العرب في عصر النهضة إلى أوروبا وأمريكا ورحلات وبعثات اليابانيين إلى نفس الفضاءات نلاحظ إقبال اليابانيين على المنجز الحضاري والتقني الغربي دراسة واستلهامًا وحفظًا، لتحقيق غاية مرسومة ومحدَّدة بدقة وهي اللحاق بالغرب وتقدمه «توخَّى مهندسو عصر التنوير الياباني تحقيق هدفين مختلفين ومتكاملين في أن «الهدف الأول هو اللحاق بالغرب، والهدف

الثاني هو الحفاظ على وحدة التراب الياباني، واعتمد تحقيقهما على إحداث تغيرات لم يسبق لها مثيل في الأجهزة الحاكمة. وكان الذي يمكنهم التصدي للقيادة هم أولئك الذين تعلموا في الغرب وحصلوا على آخر المعارف التكنولوجية».[2]

لم يخالف سيد قطب سابقيه في إتباع السياق ذاته والنمط نفسه في إخضاع المجتمع الأمريكي وانجازاته الحضارية إلى أيديولوجيته المتحيزة وتمركزه العقدي، عوض نقل الصورة والنموذج الثقافي وفتح مجال التقويم الموضوعي والنقد العلمي في معرفة أسباب التقدم والتطور وآليات الاستثمار في الإنسان وفي مجتمع المعرفة، بل انساق مقتادًا ومُسيَّرًا من منظومته الفكرية فتحوَّلت الرحلة إلى مشهد تنفيري بحكم الأحكام العشوائية والذاتية التي تلخَّصت في جملة من الصفات الدونية والنعوت الاختزالية للمنجزات الثقافية والتقنية.

1- صدمة العتبة؛ القيم الإنسانية بين التحوُّل والثبات

النص معمار هندسي لبناته الملفوظات، ولإيلاج المحمولات الدلالية وإدراكها، لا بد من عتبة تُشكِّل مدخلاً ودعوة للدخول وإثارة الفكر والوعي. وقد كانت عتبة رحلة سيد قطب صادمة للمتلقي بما أثارته من إشكالات، لعلّ من أهمها مرآة الغيرية ومرجعية الناظر نحو المنظور إليه، بالإضافة إلى مفهوم القيم الإنسانية وتباينها من منظومة أصولية إلى مُنجز تكنولوجي/تقني كشف عن نجاحات الإنسان/المبدع في صراعه مع الطبيعة وتفوُّقه في تطويع مكوّناتها لسعادته وراحة البشرية. لم يخف الكاتب منهجيته في تسيير الصورة فقد اعتمد على النظرة الانتقائية للمشاهد التي تُمثِّل دليلا على المتخيَّل والصورة الذهنية المقصودة، فتحولت الصورة إلى إرسالية إشهارية لتسويق منتوج جاهز ومكبوت في الشعور واللاشعور لجمهور مُتلقِّي مُحدّد سلفًا.

لا يتصادم الانتماء وتأصيل الهوية واحترام الخصوصيات الثقافية مع القيم الأخلاقية والفكرية والعقائدية للأخر/المختلف، بل إنّ الرفض والإقصاء والتجاهل

والاستصغار والسخرية والتعالي هي آليات المصادمة ووسائل لتغذية التعصب والعنصرية والتطرف، وإنّ القيم الإنسانية هي المشترك الفطري للبشرية من حرية وديمقراطية وتسامح وتكامل وتجاوز لكل ما يهين الذات الإنسانية ويحطّ من قيمتها روحا ومادة، وتخضع القيم لجدلية الخير والشر وما يدور في فلكهما من مكوّنات أخلاقية ودينية ومعرفية، «والقيم عبارة عن تنظيمات لأحكام تفضيلية عقلية انفعالية صريحة أو ضمنية معممة نحو الأشخاص أو الأشياء أو المعاني.ولذا فهي تتكوّن من ثلاثة أبعاد؛ معرفي يحتوي على المعلومات والمعرف التي كونها الفرد حول موضوع معين، ووجداني ويتمثل بالشحنة الانفعالية التي تنشط القيمة وتكون شدتها حسب قوة القيمة، ونزوعي يتمثل بالأسلوب الذي يجب أن يسلكه الفرد تجاه موضوع معين.».[3]

إنّ القيم هيكلة لسلوكيات إيجابية نفعية، تعمّ فائدتها الجميع، وهذا ما يمنحها القوة للاستمرارية والخلود، فكلّما كانت القيمة مفيدة ونافعة كلّ ما ازداد ارتباط الناس بها، وسارع السياسيون وفقهاء القانون إلى تشريع قوانين لحمايتها، فقد استجابت المؤسسات التشريعية للعديد من القيم بتشريع قوانين وقائية تحميها، فتحوَّلت قيمة التسامح إلى قانون يحارب العنصرية والتمييز، وأصبحت قيمة نجدة المستغيث إلى قانون يعاقب عدم مساعدة إنسان في حالة خطر وهكذا. وتثير مضامين القيم ومصادرها وطرائق تطبيقاتها العديد من الإشكالات المنهجية والمعرفية نظرًا لغياب معايير موحدة في تحديدها، وتجد الأيديولوجيات المتحيزة والمتطرفة مناخًا مناسبًا لطرح توجهاتها والتشكيك في مصداقيتها، معتبرة أن القيم خاصة ولكل مجتمع ومرجعية قيمها الخاصة التي تتنافى مع بقية القيم الأخرى، ومُنكرة وجود قيم إنسانية مشتركة.

وقد وقع سيد قطب في تناقض صريح فهم من ناحية ينكر القيم الإنسانية الكونية، ويضعها في المقابل معيارا موضوعيا لتقييم الحضارة الأمريكية، فيجعل المنجز كله تحت مجهر "القيم الإنسانية" فحقوق الإنسان وتخفيف أعباء العمل وتنظيم الحياة

الاجتماعية والاستمتاع بالراحة والصحة كلها غرائز بدائية في عرف منظومة سيد قطب الأيديولوجية ومرجعيته العقائدية؟

يُقام الجدل ويُثار حول القيم لا من حيث مضمونها، ولكن من حيث امتزاجها واختلاطها بالخصوصيات الثقافية ومكونات الهويات الوطنية، فقيم الحق والصدق والخير والتسامح والتعاون ثابتة بحكم صفة الكونية ومشتركة بين الحضارات وينتج الاضطراب المفاهيمي من الخلط بين المعايير التقييمية للمرجعيات، فتتحول المرجعية إلى أداة وآلية للنقد والتقويم دون مراعاة الخصوصيات الثقافية والاجتماعية والعقائدية، وهو الخلط الذي وقع فيه سيد قطب في رؤيته لأمريكا وفضائها الثقافي والاجتماعي « أما استعمال هذه الكلمة في مجال الأخلاق بمعنى- الحق والجميل والخير- ..والقيمة الأخلاقية بهذا المعنى حكم شخصي يتطابق بدرجة ما مع ما يراه المجتمع خيرًا بإطلاق وهو القيم المثالية التي تستعمل كمعايير لأحكام القيمة وتوجه النشاط الأخلاقي».[4]

تطابقت رؤية سيد قطب في فهم القيم الإنسانية باعتبارها شخصية، ووليدة المرجعية الفكرية الخاصة التي تحتضنها الأيويولوجية وتحميها وتنشرها مع منظور ومقاربة الباحث الفرنسي اندريه بريدو(1893-1982) (André Bridoux) الذي يعتقد أنّ« القيم مصدرها الأحكام الشخصية أولا، أحكام القيمة التي يصدرها الشخص على الأشياء بناءً على حاجته إليها أو منفعتها أو ما تلبيه من ميولات ورغبات الخ، وشيئا فشيئا تتموضع القيم مع الحياة الاجتماعية لتتعمم وتصبح ذات طابع اجتماعي».[5] وإنّ توظيف مصطلح "الإنسانية" يوحي بالمشترك الإنساني في حقل القيم بتشكُّلاتها وتجلياتها المختلفة، في حين تدل لفظة "ميزان "على توحيد المعاير التقييمية في فهم وإدراك القيم وتوحيد وظائفها إلى ما فيه سعادة البشرية ونجاتها من آفات العنصرية والإقصاء والعزلة، والتبشير بالمجتمع الكوني الذي تسوده العدالة والمثاقفة الندية، ولكن سيد قطب تجاوز المفاهيم والمعايير وسقط في الذاتية

والايدولوجيا المتحيِّزة التي حجبت عنه حقائق التواصل فأصبح مفهوم القيم صادمًا للمتلقي العربي خاصة وللإنسانية عامة.

2- المدونة؛ إشكالية الوِجهة.

انطلقت الذات العربية في رحلة المثاقفة نحو الغرب/الآخر/ المختلف باحثة عن إجابة لسؤال تقليدي/ حداثي، مضمونه؛ لماذا تقدم الغرب وتأخر المسلمون؟ وتنوّعت المقاربات والتشخيص من أيديولوجية لأخرى ومن مرجعية لأخرى مختلفة، مضادة أو مناقضة أحيانا وهو أمر طبيعي في عمليات البناء الحضاري والمشروع النهضوي.

إذا كانت الرحلات اليابانية مثلا نحو ثقافة الاختلاف (الفضاء ين الغربي والأمريكي) تستند إلى رسالة واضحة وهدف جلي هو استقراء وتفكيك المنظومة الفكرية والتقنية المنتجة للتكنولوجيا الأوروبية والمدنية الغربية عموما.[6] لمحاكاتها ومعرفة أسسها ومكوناتها ورهاناتها، فإن الرؤية الرحلية السفارية العربية نحو الغرب قد قامت على مبدأ الإسقاطات الفقهية على المنجز الحضاري الغربي ومقاربته مقاربته تخضع لثنائية الحلال والحرام، مما ساهم في فشل المشروع المثاقفاتي العربي مع "الآخر" الغربي،« ووجدنا أيضًا من الأواني الرَّفيعة، والثريات من الذَّهب والفضة، والكراسي المفروشة بالحَّرير، والمرصعة بالذَّهب، ما لا يحصى ولا يحدّ ولا يستعصى، وذلك كلُّه مصداقًا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «الدنيا سِجن المؤمن وجنَّة الكافر»[7] ويستمر هذا الضرب من الخطاب المركزي في أغلب الرحلات مُكرسًا لمعجمية فقهية متداولة في فقه أهل الذمة.

كانت رحلة سيد قطب إلى أمريكا تأسيسًا لنمط جديد من الارتحال نحو ثقافة الاختلاف، فقد كان المنظور إليه أوروبيا في رحلات النهضة العربية (فرنسيًّا أو انجليزيًّا في الغالب) ليتحوَّل إلى فضاء جديد ومتجدد من حيث النشأة والتكوين، ومتجدِّد باعتبار المكونات البشرية والأنثربولوجية والطبيعية والاقتصادية والثقافية لبُنية

شكلت التعددية والانفتاح رأسمالها الذي لا ينفذ وكنزها الذي لا يبلى ولا يفنى. وقد تساءل العديد من النقاد عن سبب الرحلة وعن صاحبها ولماذا أمريكا أولا؟ وعطفًا لماذا سيد قطب بالذات؟

ذهبت القراءة التفسيرية الأولى والتي تبنَّاها الطاهر مكي أن الغرض من الرحلة هو إبعاد الكتب عن الأجواء الثقافية والسياسية الإسلامية التي بدأت تطفو في المجتمع المصري كبديل عن الأوضاع المعيشة وفشل السياسات الاجتماعية، وبداية ظهور علامات التوجه المبدئي لفكر الإسلام السياسي، ومحاولة تخليص سيد قطب من الانتماء لثقافة دينية مؤدلجة تؤصل لثقافة الإقصاء وإنشاء المجتمع الموازي « وأول ما يلفت النظر في هذه البعثة أنها جاءت فجأة وشخصية، فلم يعلن عنها ليتقدم لها من يرى نفسه كفئا، وأن المبتعث تجاوز السن التي تشترط إدارة البعثات توفرها بكثير... من الذي أوحى بالبعثة؟ وفكر فيها؟ ودفع سيد قطب إليها؟ وماذا كانت الغاية الحقَّة من ورائها بعيدا عن الظاهر غير المقنع؟ ».[8]

إنّ هذه القراءة في اعتقادنا سطحية لأنّها لا تستند إلى قرائن موضوعية أو مؤشرات علمية تضمن إمكانية التغيير والتحوُّل الأيديولوجي والعقائدي والفكري، فالصدمة الحضارية مع الغرب تنتج في الغالب موقفين متباينين، يتراوحان بين التماهي الكلي والانبهار الجزئي أو الانكفاء على الذات وبالتالي النكوص والعودة نحو الماضي (السلف) لإحداث توازن نفسي واجتماعي وثقافي ويعتبر الفضاء الثاني حاضنة لكل أفكار التطرف والرفض والتمرد لعجز "الأنا" من التكيُّف والتفاعل مع المعطيات الجديدة والمناخات الثقافية والاجتماعية الحداثية.

تذهب المقاربة الثانية في الاعتقاد بدور المستشرق الانجليزي جيمس هِيْوارْث دون[9] في التنسيق والمساهمة في تنظيم رحلة سيد قطب نحو أمريكا استغلالاً لقلمه وفكره في البناء الاجتماعي خاصة حين رصد العالم الغربي ميزانيات ضخمة للوقوف أمام مسألة الامتداد الشيوعي وانتشار مبادئ الاشتراكية التي بدأت بعض الأقلام

الإسلامية تقارنها بالإسلام وترى تشابهًا مطلقًا بينهما خاصة ما تعلَّق بالعدالة الاجتماعية ومحاربة الطبقية والاستغلال والظلم والفساد، فقد دلَّت التقارير الإستخباراتية بالقابلية العربية في تبنِّي الفكر الشيوعي عامة والاشتراكية خاصة، لذلك سعت إلى إنشاء نخبة وأنتليجنسيا من مختلف الأطياف تُسند لها أدوار الدعوة والنقد والتنفير من الشيوعية وربطها خاصة بالكفر والإلحاد لاعتمادها على الجدلية التاريخية والتفسير المادي للحوادث وإنكارها لكل المظاهر الروحية، مما أهَّل الاتجاه الإسلامي ليكون أحسن سفير للقيام بهذه الوظيفة، و«إن هيوارث دَن هو الذي دبر لسيد قطب المنحة أو الرحلة إلى الولايات المتحدة للاطلاع على التجربة الأميركية في الحرية والديمقراطية ! ودليله على ذلك أن دَن وصل إلى الولايات المتحدة وقت وصول سيد قطب إليها، وهناك أطلعه قطب على كتابه: «العدالة الاجتماعية» الذي كان في الطبع عندما سافر، كما أطلعه دَن على مخطوطته عن الإخوان المسلمين»[10]

الرؤية التأويلية الثالثة هي تلك المعبَّر عنها في الأدبيات العامة لأسباب الرحلة وسيرة سيد قطب والمتعلقة باكتساب الخبرات في مجالي التربية والتعليم « في عام 1378هـ موافق 1948 م سافر سيد إلى ((أمريكا)) في مهمة دراسية تتحدد في الوقوف على المناهج الدراسية وأصول التعليم بعكس ما ذهب إليه الأستاذان: أحمد الجدع وحسن أدهم في كتابهما ((شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث)) من أن السيد اختير في بعثة دراسية إلى ((أمريكا)) »[11]

إنّ المستعرض لتاريخ التعليم في أمريكا أو العالم الجديد يدرك بعقلانية تخبط النظام التربوي الأمريكي في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي إلى صراع الأقليات والثقافات مع استراتيجيات المركزية البيضاء التي تسعى لاحتواء الفوارق وتجاوز الثقافة العنصرية /الاقصائية التي سادت المنظومة الفكرية والسياسية والاجتماعية وسيطرت وهيمنت على الرؤى والسياسات التربوية، مما أدَّى وأنتج تأخرًا في البحوث والدراسات النوعية التي تؤسس للجودة في المناهج والطرائق الديداكتيكية.

وبناءً عليه فلم يكن النظام التربوي الأمريكي في الأربعينيات من القرن الماضي نموذجًا للمحاكاة والتقليد لاعتبارات كثيرة يُجملها المختصون في الحقل التربوي في عوامل متنوعة أهمها اتساع الرقعة الجغرافية للفيدراليات الأمريكية، والانتقال المكثف للجاليات بسبب الهجرات وتنوع الثقافات والتعددية اللغوية بالإضافة إلى التركيبة البشرية الطبقية التي أفرزت رفضًا سياسيًا واجتماعيًا وثقافيًا لكل ما ليس أبيضًا، فكانت رهانات التربية وإستراتيجيتها تتمركز حول آليات توفير التعليم وتعميمه أولا ثم البحث عن جودته في مرحلة ثانية.[12]والحقيقة أن النظام التربوي الأمريكي لم يرق عبر مساراته التاريخية إلى مستوى العالمية من حيث الجودة وإنتاج المعرفة كما شأن فيلدنا أو اليابان «وقد تمثلت ابرز مؤشرات تراجع الريادة العلمية الأمريكية في تدهور النظام التعليمي الأمريكي نفسه، والذي يقول عنه الخبراء انه في خطر حقيقي، فهناك أكثر من 25 مليون من أصل 300مليون أمريكي لا يحسنون القراءة والكتابة، وهناك 40 مليون يقرءون بصعوبة ولا يعرفون الكتابة، واحتلت أمريكا المرتبة رقم 17 بين الدول الصناعية الكبرى من حيث الإنفاق على التعليم، بالإضافة إلى مشاكل أخرى لا تقل خطورة، مثل انتشار العنف والمخدرات ».[13]

ترتكز المقاربة الأخيرة وهي الأطروحة الأقرب إلى الموضوعية والعقلانية على تشريح فكر سيد قطب المتمظهر والمتجلي في كتاباته الفكرية المؤصلة لنظرية الإسلام السياسي ومشروع البديل الاجتماعي والسياسي والاقتصادي وهي محتويات كتابيه((العدالة الاجتماعية في الإسلام)) سنة 1949 في مرحلة أولى، لتعقبها أفكار مضمون كتاب ((معالم في الطريق)) سنة 1964 وأفكار الكتابين عبارة عن دستور للمشروع الإسلامي الراديكالي ودعوة إلى الاعتقاد به والجهاد في سبيل تطبيقه، كما تشكل هذه الكتابات مرحلة التحولات الفكرية والثقافية والجهادية في سيرة سيد قطب بعد المرحلة الأولى، التي مثلتها الأعمال الأدبية والنقدية ((طفل من القرية))سنة 1946،

((النقد الأدبي، أصوله ومناهجه)) سنة 1948، ((التصوير الفني في القرآن)) سنة 1945.

لقد جاءت فكرة التخلص من سيد قطب إداريا بعد ظهور أفكار الحاكمية وجاهلية المجتمع وضرورة تقديم بديل سياسي وثقافي مُخلص للعالم من معاناته بعد فشل الأنظمة الرأسمالية والشيوعية« فالإسلام هو القوة الحقيقية التي يقف لقوة الفكرة المادية التي تدين بها أوربا وأمريكا وروسيا والصين على السواء. الإسلام هو الذي يتضمن التصور الكلي الشامل المتناسق عن الوجود والحياة؛ ويقيم التكافل الاجتماعي في المحيط الإنساني مقام الصراع والتطاحن؛ ويجعل للحياة قاعدة روحية تصلها بالخالق في السماء ؛ وتسيطر على اتجاهها في الأرض »[14] وقد تبلورت فكرة الحاكمية الإلهية في فكر الباكستاني أبو الأعلى المودودي (1903- 1979) التي استمد أصولها من المرجعيات الأصولية الكلاسيكية التي تدعو إلى اعتماد وتطبيق المعايير والأحكام الخمسة المشهورة (الوجوب- الندب- الإباحة- الكراهة- التحريم) وهذا تتحول فكرة الحاكمية إلى عقيدة مقدسة وكل محاولة اجتهادية للتشريع أو التأصيل للقوانين تعد كفرًا بوَّاحًا باعتبارها مساواة بين المشرِّع البشري والحاكم وهو الله سبحانه وتعالى.

استدعت هذه المرحلة وجوب اتخاذ إجراءات واستراتيجيات لتخليص الإدارة (دائرة المعارف) أولا من سيد قطب لرفع ما يشبه بالحصانة الإدارية والقانونية لتعبيد الطريق أمام التسريح والفصل النهائي من الوظيفة، لعدم تناسق وتوافق فكره الشخصي مع سياسات الوزارة وأدبياتها في الدعوة إلى الوسطية والاعتدال، فجاءت فكرة الرحلة والإرسالية إلى أمريكا كمنقذ وحلّ واقعي.

استشرفت كل هذه المؤشرات والمعطيات خطورة دعوات سيد قطب على الفضاء الاجتماعي والسياسي المحلى أولا ثم العربي فالعالمي لما تحمله من أفكار تدعو إلى التأصيل لبناء المجتمع البديل والموازي للمجتمع الجاهلي ممَّا ويؤدي إلى الصدام الداخلي والحرب الأهلية وتصفية النخبة المعارضة، خاصة بعد معارضة بعض الدعاة

والمفكرين لمفهوم الحاكمية ومنهم محمد عمارة ومحمد الغزالي. يتخذ البحث من مجلة "الرسالة" مصدرًا لرحلة سيد قطب التي نشرها على حلقات ثلاث تحت عنوان "أمريكا التي رأيت: في ميزان القيم الإنسانية" [15]، ولتعميم الرؤية حول تصوُّر سيد قطب لأمريكا، استعانت الدراسة بأطروحات صلاح عبد الفتاح الخالدي الموسومة ب: أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب، الصادرة عن دار المنارة.

أ- موسيقى الجاز من منظور عقدة التعالي

تخضع عمليات تقدير الجمال الفني والموسيقى لملكة إدراك الجماليات الإيقاع وما يصاحبه من لحن وكلمات تشكل في امتزاجها وتناسقها وتناغمها عملا فنيا تطرب له النفس وترتاح له الأذن وبقية الحواس.

وقد عجز نقاد الموسيقى عن إيجاد قواعد ومعايير موحدة للسياقات الموسيقية لفرز وتمييز الجيد من الرديء وتحديد أسس عامة للاستحسان أو الاستهجان، ذلك أن الذوق الفني/النغمي ذاتي، والذوقية حالة انطباعية لا تخضع للضوابط العلمية والموضوعية، فالحكمة اللاتينية تعتقد بعدم جدوى مناقشة الأذواق والألوان.[16]وليست كلّ الموسيقى طرباً ونغماً للهو والمتعة، فإن بعض القطع الموسيقية تحمل دلالات دينية كما هو شأن الترانيم الكنسية حيثُ تؤدي الجوقة تراتيل عبادية أو معزوفات الطبول عند الهنود الحمر والشعوب الإفريقية.

ولا يمكن لدارس الموسيقى أن يفصل بين موسيقى الجاز(JAZZ) وتاريخ الزنوج الأفارقة، ومعاناة العبيد والرغبة الثورية في ثقافتهم ضد العنصرية والتمييز، فكل قراءة أو مقاربة معزولة عن هذا السياق التاريخي والثقافي والانثربولوجي يُفقد التعبير الفني/ الموسيقي وظيفته الثورية« ((موسيقى الجاز)) هي موسيقاه المختارة، وهي تلك الموسيقى التي ابتدءها الزنوج لإرضاء ميولهم البدائية، ورغبتهم في الضجيج من ناحية ولاستثارة النوازع الحيوية من ناحية أخرى، ولا تتم نشوة الأمريكي تمامها بموسيقى الجاز، حتى يصاحبها غناء مثلها صارح غليظ، وكلما علا ضجيج الآلات

والأصوات، وطن في الأذان إلى درجة لا تطاق... زاد هياج الجمهور وعلت أصوات الاستحسان، وارتفعت الأكف بالتصفيق الحاد المتواصل الذي يصم الأذان»[17]ولقد أطلق سيد قطب أحكاما ارتجالية سطحية حول موسيقى الجاز متهمًا أصحابها بالبدائية والغوغائية والحماقة، متجاهلاً المحمولات الثقافية والدينية والسياسية لهذا الضرب من الموسيقى الذي اعتبرته منظمة اليونسكو تعبيراً عن التسامح والمعاناة والثورة ضد الاستبداد والعنصرية وهو دعوة صريحة للتقارب بين الشعوب وتجاوز الاختلافات العرقية[18]. وبهذه الرؤية يكون سيد قطب قد اشترك مع دعاة العنصرية البيولوجية الذين يؤمنون بالتفاوت الذكائي بين الأعراق البشرية، ويعتبرون الجنس الزنجي، عرقا متخلفا، غير مؤهل لتقبل الحضارة والمدنية « إنه جنس دوني، أحمق غير قابل للتطور». [19]

إنّ الحركات الجسدية لرقصات الجاز تشكيل لمشهد المعاناة وإعادة لمظاهر الضرب والجلد والبتر والحبس التي تعرض لها الزنجي في رحلته من إفريقيا/الأم إلى العالم الجديد، وتجسيد تعبيري فني لخطاب الإقصاء والعنصرية «إن الإفريقي مرتبط بالموسيقى، وبأخواتها من الفنون الأخرى كالنحت والرسوم الحائطية وبقية الفنون التعبيرية الأخرى، فهي ليست فلسفة أو استجابة دينية فقط بقدر ما هي بُنية اجتماعية شاملة».[20]

تنبع ثقافة العنف من الألفاظ المنتقاة من الكاتب بقصدية (البدائية، النوازع، الصراخ، الغلظة، الضجيج...الخ)، فعنف اللغة ينبثق من معجمية الخطاب الذي يُحيل إلى انسداد تواصلي وقطيعة سوسيو- ثقافية مع الآخر/المختلف، فالألفاظ وظيفية، موجهة لأداء إرسالية فكرية مضمونها محمولات المنطوق الصريح الذي صوَّر مشهدًا تنفيريًّا، مُقززًا، لدونية "الزنجي" وبربريته المتنافية مع قيم الإنسانية من منظور أحادي وإقصائي. وإن إدانة الآخر بالوحشية والحيوانية اقرار بإبعاده عن المثاقفة ورفض قاطع لكل عمليات التواصل ورغبة في التقارب والقبول بالاختلاف، والحقيقة إن التمثُّلات

المشوهة للزنجي (السودان المصلح العربي) كثيرة في المنظومة الفكرية والدينية العربية القديمة، فقد صنع المتخيل العربي كيانات متخيلو مستهجنة وقبيحة، وخضعت هذه الصناعة لمعيار القوة والغلبة والاستعلاء الذي سيطر على الحضارة الإسلامية عند تطبيق ثنائية دار الكفر ودار الإيمان، وبهذا التصور يتقاطع الفكر العربي في صناعة صورة الزنجي مع الاستشراق في بنائه لصورة الشرق «فكما كان الاستشراق من منظور ادوارد سعيد ((كيانًا مشكَّلاً مُكوَّنًا)) من صنيع الاستشراق، كذلك كان ((عالم السودان)) الذي ندرسه هنا كيانا مشكلا مكونا من صنيع الثقافة العربية الإسلامية».[21]

لم تتمكن ثقافة سيد قطب الإسلامية من التخلص والتحرر من الرواسب الفكرية المتوارثة من المنظومة التاريخية والأدبية العربية في تصوُّرها للآخر/الزنجي بنعته بكل أوصاف الدونية والهمجية الحيوانية مع ما يُصاحب الوصف من صور مشوَّهة للخِلقة تجعل من شخصه نموذجًا للقبح (المسعودي في مروج الذهب) و(اليعقوبي في تاريخه) و(القزويني في أثار البلاد) فقد ساهمت هذه الأفكار وأسَّست في بنائية صورة الزنجي/الأمريكي على إخراج صورة نمطية، مكررة وجاهزة مع اختلاف المدونات والفضاءات فقط، فجاءت مرآة الغيرية متحيِّزة ومشوَّهة، و«إن المتخيَّل العربي لم يجد غضاضة في التعبير عن اختلافه مع السودان الزنوج من خلال ثنائية (الطبيعة/الثقافة) و'الحيوانية/الإنسانية)، فانتهى إلى تقريب عادات هؤلاء وسلوكهم إلى الحيوانية. إن إضفاء سمة الثقافي على الآخرين إنما تعني مشابهة هؤلاء الآخرين لثقافة الذات، في حين إن الهمجية والحيوانية إنما تنحصر في مغايرة الذات والتنافر معها».[22]

يعتقد الكثير من علماء اللسانيات التواصلية بأن الانحراف اللغوي مدخل تأسيسي وتأصيلي لثقافة العنف والتطرف لأن اللغة أداة لإنتاج الدلالة وحجية مشروعيتها، وتجسيد للوعي الثقافي بالآخر، وقد جانب سيد قطب المنطق التواصلي ومنهجية علم الصورولوجيا(L'imagologie)، الذي يدعو إلى تجاوز النمطيات

(stéréotypes Les) والأفكار المسبقة (Les préjugés). فقد اعتمد الذاتية والصور المتوارثة في تركيب صورة الزنجي/الأمريكي كآليات ووسائل علمية لانجاز تمثُّلات (Les représentations) الآخر/ الغيرية كنموذج للاختلاف.

ب- **قراءة تفكيكية في البُنية المفاهيمية والمنظومة الاصطلاحية**

يتّجه خطاب سيد قطب إلى رصف الألفاظ والمصطلحات وشحنها بمحمولات دلالية قوية لإثارة المتلقي ودفعه نحو الاستجابة اللاإرادية من خلال توظيف سرد تقريري يجعل من الموصوف موضوعًا ساخرا، مُقزِّزًا ومُنفِّرًا وذلك بالجمع بين المشهد الايجابي (العلم المتقدم) بالصورة المضادة والمعاكسة (البدائية) فتدفع إستراتيجية المفارقة (Paradoxe) إلى خلق توتر دلالي وبلاغي يُنتج موقفًا من السياق السردي باختيار البعد الشعوري البسيط وغالبًا ما يكون تماهيًا مع روح الكاتب ووعيه « يبدو الأمريكي – على الرغم من العلم المتقدم والعمل المتقن- بدائيا في نظريته إلى الحياة، ومقوماتها الإنسانية الأخرى بشكل يدعو إلى الدهشة. ولعل لهذا التناقض الواضح أثره في ظهور الأمريكان بمظهر الشعب الغريب الأطوار في نظر الأجانب الذين يراقبون حياة الشعب من بعيد» .[23]

إنّ البدائية في العلوم الاجتماعية والدّراسات الأنثربولوجية هي حالة ثقافية واجتماعية لمجموعة بشرية بعينها تعيش في انسجام وتآلف بحكم الأعراف والقوانين المتعارف عليها اجتماعيًّا، وهي مرحلة نمو وتطور وليست صفة تُنعت بها مجموعة أخرى، لأن الصفات والمميزات التي تتميَّز بها المجتمعات البدائية تشكل هويتها وخصوصيتها الثقافية « ((الشعوب البِدائية أو البُدائية)) نسبة إلى ((البُداءة)) بمعنى ((البدأ)). والبدائية في علم الاجتماع هي الطور الأول من أطوار النشوء».[24] (بديع، 2010، 102). وتُجمع جميع معاجم المتخصصة في حقل علوم السّلالات والحضارات القديمة أن لفظ "البدائية يُحيل إلى « البداية أي حالة الانطلاق الأولى، كما تعني الأقدم »[25](Dictionnaire, 469) ، ولم يتم مطلقًا تداول المفهوم

كصفة سلبية توحي بالدونية والنُّقص الحضاري والضعف الروحي وغياب العقيدة الدينية، وإنما أراد الكاتب إبراز فجوة وهمية يعتقد بوجودها بين المنجز المادي والقيم الروحية.

أما (الدهشة) التي تُشير معجميا إلى الغرائبية والعجائبية والاستفهام حول شأن أو مسألة غابت أسبابها، فأثارت الحيرة والارتباك والذهول من المفاجأة وعدم التوقع، فلم نعثر لها على سياق وظيفي يمكن هيكلتها ضمنه وتأطيرها كشاهد موضوعي على حالة بعينها، فحالة الانفصام التي يعتقد الكاتب بوجودها بين الفضاءين المادي والمعنوي لا يمكنها أن تخلق حالة شعورية تثير الذهول والدهشة، وربما ما يُثير الارتباك والدهشة هو التسارع العجيب في حقل الابتكار والإبداع والتحوُّلات في البنية التحية والعمرانية، فقد ذهبت دراسة فرنسية إلى أن « موضوع أمريكا من التيمات المميزة في الأدب الرحلي الفرنسي، فقد نشرت بين سنوات 1919 و1939، 127 رحلة، شكَّلت معلوماتها مصادر أساسية لـ 67 مُصنَّفا حول التعريف بأمريكا».[26]وتعتقد هذه الدراسة أن الدهشة كانت عظيمة بالنسبة للرحالة الفرنسيين حين زاروا أمريكا لما شاهدوه ووقفوا عليه وهم يقارنون بين القارة العجوز والعالم الجديد «إن أغلب الرحالة الفرنسيين إلى أمريكا وحضارتها بين الحربيين، فوجئوا بالصدمة القوية والفروق الجوهرية بين أوروبا وأمريكا، مشاهد ناطحات السحاب الزجاجية المثيرة للانتباه...إنها رموز المادية الأمريكية المعبرة عن الرفاهية وتذوق الفخامة وانتشار الثراء».[27]

ينتقل سيد قطب في تشكيل صورة الأمريكي من الطرح الدلالي الملفوظ إلى الخطاب المرئي التصويري، الذي يجعل المشهد يتحول من مستوى الخطابية إلى المستوى التصويري التجسيدي المادي، بذلك تنتقل سلطة النص الدلالية إلى نظام العلامة التصويرية التي تجسد المعنوي في إطار مادي تصويري. وضمن الإرسالية التصويرية يتحوَّل المتلقي من قارئ مُنتج إلى مستهلك سالب يتبنَّى استراتيجيات جديدة أهمها التوليد والتأويل، فيخضع التوليد إلى تحويل الخطاب المقروء إلى خطاب

مرئي في شكل صور متتابعة، تتميَّز بالواقعية والدقة، مُشكِّلة لصور مقصودة «تشاهد حفلات الملاكمة والمصارعة الوحشية الدامية ... منظرها هياجها الحيواني..إن الأمريكي بفطرته محارب محب للصراع»[28] فعلامات الصورة تتكوّن من مناظر وحشية بربرية لحلبة صراع آدمي، ديكوره الدماء والقتل ممتزجة بسادية الجمهور المعجب والمتفاعل، أما التأويل فتمثِّله الحالة النفسية الواعية لرفض المشهد والنفور منه.

يرتفع نسق التهويل والترهيب من "الآخر" حين يعلن الخطاب عن تصوير المشهد القيمي للحضارة الأمريكية بوصفها ونعتها بأنها حالة لم تتجاوز المرحلة الجينية في هرم بناء الحضارات، فهي مرحلة أولى سبقت الاكتشافات العلمية « تذكر بعهود الغابات والكهوف».[29] ويتحوَّل المتخيَّل في هذه الصورة إلى معايشة صورة وفضاء تسوده البدائية في الفكر والعمل والخلق، ويتحقَّق بذلك النفور والاشمئزاز وتبدأ الذات المستقبلة مرحلة البحث عن البديل المثالي، الذي يُكرِّس العدل والحق والخير والجمال ويبتعد عن الظلم والعنف والتخلف. ويفتقد منجز هذه الحضارة إلى أبسط قواعد الآدمية، فهو إبداع وصناعة مستهترة بالقيم جميعها والدينية على وجه التخصيص، حتى وإن بنى الكنائس ودور العبادة المختلفة، فالأمريكي يرتاد هذه الأماكن المقدسة بهمجية الاختلاط بين الجنسين، وتوظيف الموسيقى والترانيم في قراءاته للنصوص المقدسة مما يُفقد العبادة روحها ويحوِّلها إلى كرنفال ترفيهي « ليس هناك من هو أبعد عن الأمريكي عن الشعور بروحية الدين واحترامه وقداسته، وليس ابعد من الدين عن تفكير الأمريكي وشعوره»[30]

إنَّ تشويه المقدّس من شعائر وعبادات تمنح المتلقي آلية احتقار وازدراء "الآخر" وعدم الثقة به، لممارساته وتفننه في التعامل مع الدين، فتصبح صورته صدى للاستهتار واللامبالاة نظرًا لمكانة المقدس عامة والدين خاصة في وعي "الأنا" وضميرها الوجداني، فالدين هو الحاضنة المركزية والوعاء الجوهري للمقدس ولتجلياته لأنه يُشكِّل مُكوِّنًا أساسيًّا من مقومات الهوية ومنها يأخذ قوته وسلطانه. ومن

المتعارف عليه في الدراسات الاجتماعية أن المساس بالهوية ومُكوّناتها غالبًا ما يكون دافعا لإثارة القوميات ودفعها للانتفاضة لشعورها بالزوال واعتبار عمليات الاعتداء استلابًا واغترابًا وانسلاخًا. وغالبا ما تؤول صورة الاعتداء على المقدسات عند العامة من الناس إلى ضرب من الاستعمار والغزو الثقافي يستوجب النضال والثورة لاسترجاع المسلوب واثبات الذات، والأمريكي دائما « يستهين بالمثل والمبادئ والأخلاق»[31]

استطاع سيد قطب توصيف الأمريكي بتجريده من احترام القيم والمقدسات، والمقدس في المعجمية الأدبية أو في الموسوعات المتخصصة مرتبط دائما بالمدنس، ورمزية المقدس قوية في الضمير والوعي الاجتماعي الذي يستهجن التلاعب بالدين والقيم الأخلاقية التي تميز فئة اجتماعية عن أخرى، وتغليف المسائل الثقافية بقناع ديني يمنحها قوة التسويق والتأثير، وهذه التقنية متداولة وشائعة في الخطاب السياسي الإسلامي عامة وخطاب سيد قطب خاصة وهو المتخصص في التصوير الفني « فلن يبرز المعنى الواحد إلا في صورة واحدة؛ فإذا تغيَّرت الصورة تغيَّر المعنى بمقدارها. وقد لا يتأثر المعنى الذهني العام في ذاته، ولكن صورته في النفس والذهن تتغيَّر، وهي المعوَّل عليها في الفن — إذ التعبير في الفن للتأثير– فإذا اختلف الأثر الناشئ عنه، فالمعنى المنقول مختلف بلا مراء!»[32] (قطب، 1951، 241).

يُشحن سيد قطب خطابه بألفاظ ذات محمولات دلالية قوية، حاملة لرسالة هدفها تغيير الواقع والتصور والرغبة من خلال تحقيق شعور النفور بعد فعالية البيئة الجديدة أو العالم الجديد الذي ما انفكت الأدبيات التاريخية تمدحه وتشيد بفضائله وانجازاته التقنية والتشريعية، مركزا على افتقاده لمنظومة قيميَّة يُقتدى بها، فهو ليس مجتمعا عاديا فحسب، بل هو مناخ متعفن، آسن لم يتمكن من تجاوز مراحل النمو الحضاري الأولى، فهو لم يتحرر بعد من مرحلة الحبو، مما جعله يتخبط في الجهل القيمي « يبلغ في عالم العلم والعمل، قيمة النمو والارتقاء، بينما هو في عالم الشعور والسلوك بدائي لم يفارق مدارج البشرية الأولى»[33] فقد شرَّع هذا المجتمع حقوقًا

للإنسان وقضى على التمييز العنصري والإثني والديني، ونظَّم الحياة السياسية والثقافية، وحرَّر الإعلام وأقرَّ حرية الصحافة وعمَّر الأراضي بتحويل الصحاري إلى جنَّة خضراء بالإضافة إلى فتح آفاق الفضاء للبحث والاكتشاف ولكنه بمفارقة عجيبة، ما زال بدائيا!!!

يُنتج هذا الخطاب انسدادًا تواصليًا ورفضًا مطلقًا لكل عمليات المثاقفة والانفتاح، فالمعجمية اللغوية المستعملة تحتضن معاني الدونية والتخلف والانحطاط الأخلاقي، فعنف اللغة يمنع التبادل المعرفي والتواصل الإنساني لأنه ينتج سلوكيات جديدة تتماشى مع وظائف اللغة التداولية« يرى لاكان أن اللغة ليست مجرد وعاء للأفكار والمعلومات، كما أنها ليست مجرد واسطة للتواصل. بل هو يرى أن ما يؤدي إلى الفشل في التواصل أيضا هو يحمل مغزًى هامًا: فإن حالات سوء التفاهم والارتباكات والممارسات الشعرية وملامح أخرى...كلها تنبثق أيضا من اللغة وخلالها. وهذه الملامح هي التي تظهر فيها آثار عمل العقل الباطن.»[34] ويُولِّد اللفظ العنيف ثقافة العنف بتجلياتها وأنواعها المختلفة، فمعجم ألفاظ الشدة والقسوة والتوبيخ والاختزال والتصغير وغيرها يمنع الفعل التواصلي الذي يمثل الدور الأساسي للغة «بالنسبة لفلسفة التواصل لا يمكن اعتبار الخطاب مجرد انعكاس لوعي مشترك ولأيديولوجية واضحة المعالم، فالخطاب أداة ذات أهمية في تكوين أفعال الجماعة وصناعة سلوكات في ممارساتهم الاجتماعية»[35] (مصدق وهابرماس واخرون، 2005، 79).

يعتمد سيد قطب على سلطة اللفظ كوسيلة للتعبير وإنتاج ردود الأفعال وتبنِّي المواقف واختيار البدائل، فالمحمولات اللغوية تنتج تحيزًا معرفيًا وحضاريا يدفع بالأنا نحو الانغلاق والانطواء على الذات خوفًا من الانصهار أو الإحساس بالاغتراب، وبالتالي البحث عن وضعية جديدة تتكيف وتتفاعل معها دون صراع أو انفصام «فالكلمات عند هيدجر تتجاوز بنيتها الشكلية كألفاظ ورموز اصطلاحية بمعنى أنها تكشف عن الوجود، بل هي مأواه. وذلك ما يظهر بوضوح عندما نلاحظ الاختلاف الذي يوجد

دائما بين اللغة الاصطلاحية واللغة الحية، لذ يبقى شيء ما غير ظاهر في اللغة يقتضي الوصول إليه تجاوز الذاتية والموضوعية بتحليل المستوى التركيبي والدلالي للنصوص اللغوية»[36] (مصدق وهابرماس واخرون، 2005، 86). ولعمليات التشويه وظائف خطابية تعمد الكاتب الوصول إليها وإقرارها للحصول على سلوكيات مناوئة ومناهضة لطبيعة المجتمع المنظور إليه واعتماد نموذج بديل يُمثِّل ويحتوي القيَّم والمثاليات الروحية التي تُخلِّص الإنسان من دنس ونجاسة مجتمع المادة وترتقي به إلى السعادة والطهارة الروحية.

لم تنج البنية الاجتماعية والأسرية من انتقادات سيد قطب ورفض أنظمة العلاقات الوجدانية والعاطفية المتداولة بين الشباب، ولم يكن رفض الكاتب مؤسسا على رؤى فقهية من باب الإباحة والتحريم، أو بسبب مشاهد الانحرافات الأخلاقية والجنسية الممارسة في الشوارع والحدائق العمومية، كما لم يكن الانتقاد مرتكزا على آليات الزواج في المجتمع الأمريكي الذي تتقاسمه مؤسستين، الأولى دينية والثانية مدنية أو ذلك النمط الحداثي الذي ينادي بالتحرر من القيود القانونية والتشريعية والجنسية. فالتشريع الأمريكي يمنح الفرد الحرية في اختيار صيغة الارتباط التي تناسبه ما لم تتنافَ مع القوانين المدنية ودستور الدولة، فاختيار القرين مسألة ذاتية مرتبطة بالوجدان والعاطفة، ولكن سيد قطب صنَّفها ضمن صفة البدائية التي لامست كل الميادين، وأصبحت نتيجة وتفسيرًا لكل الظاهر الاجتماعية والثقافية « الأمريكي بدائي في حياته الجنسية وفي علاقات الزواج والأسرة..بفتنة الجسد وحدها، عارية من كل ستار، مجردة من كل حياء، تلقى الفتاة الفتى، ومن قوة الجسد وضلاعته يستمد الفتى إعجاب الفتاة »[37] قد يكون للباحث في العلوم الاجتماعية تحفظات وانتقادات على نظام اجتماعي بعينه ولكن موضوعية البحث تستوجب التجرد في نقل الحقائق، فلا يُعقل تصوُّر مجتمع من العراة أو متجرد من كل مظاهر الحياء، وحقيقة لقد منح مناخ الحريات فرصة للشباب للتعبير عن مشاعرهم ولكن ليس بالحرية المطلقة.

إن الاختلاط وحرية اللباس وغيرها من القضايا الاجتماعية مكفولة قانونًا ليتحمَّل الفرد مسؤوليته لنمط الحياة التي يرغب فيها وتناسب مستوياته وهذا ماش كل بنية اجتماعية قوية « تعد قوة بنية المجتمع المدني في أمريكا ومتانتها، من أهم آليات التغيير الاجتماعي ومقاومة الاستبداد السياسي .. وقد استمد نموذج المجتمع المدني في أمريكا قوته وتفوُّقه من إعادة ترتيب المؤسسات المدنية وتكاملها مع المؤسسة السياسية»[38]أما معايير اختيار القرين والتي حددها سيد قطب باستعراض للفتاة لمفاتنها واعتمادها على الإثارة الجنسية من خلال الحركة، فإن الأمر يتطلب دراسة ميدانية تُسائل الشباب ذكورا وإناثا ثم تحلل العينات لاستصدار الأحكام، لأن المكاشفة عن أجزاء من الجسم وبعض أعضائه يصنَّف أيضا في مواكبة حركات الموضة والتجديد في اللباس.

يُعدُّ قطاع الإنتاج السينمائي في أمريكا قطاعًا فنيًا واقتصاديًا استراتيجيًا، فالسينما فن جماهيري يستقطب جميع فئات المجتمع على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. وقد تطوَّرت الصناعة السينمائية الأمريكية منافسة للاحتكار الأوروبي للسينما الصامتة، وتناولت السينما الأمريكية بالبحث والتصوير جميع الموضوعات التي تتقاطع مع انشغالات المجتمع السياسية والفنية، وعالجت مسائل وقضايا المجتمع متعرضة بالبحث والنقد للقضايا الاجتماعية من سرقة وسطو وإجرام بصفة عامة، كما سايرت القضايا التاريخية للمجتمع الأمريكي في تطوره ونموه فصوت بدقة الحرب بين الشمال والجنوب، بالإضافة إلى موضوعات الخيال العلمي بعد الفتوحات العلمية في غزو الفضاء. والسينما في الأعراف الإعلامية إمبراطورية، وهي قوة سلطوية كثيرا ما تُستخدم في توجيه الرأي العام وحتى التلاعب بالعقول بتعبير بيير بورديو (Pierre Bourdieu) (1930-2002) « لم تعد أهداف العمل الإعلامي مقتصرة على الوظائف التقليدية في الإعلام والترفيه والثقافة، بل أصبح أداة سياسية تستخدمها الدول في السلم والحرب لتحقيق أهدافها الخارجية في المجالات

المختلفة »[39]وتقوم ثقافة الصورة بتركيب وصناعة رأي عام يتماشى ويتوافق مع السلطة المركزية وهي أجهزة أيديولوجية تسخرها الأنظمة للدفاع عن مشروعيتها وتشكيل أفكار وتوجهات موالية تسوق للنظام وتدعو إلى استمراره كما يقول الفيلسوف الفرنسي لوي التوسير (1918-1990)(Louis Althusser)[(40)].

يرى سيد قطب أن هذا القطاع يجسد من خلال موضوعاته ومقارباته وأطروحاته الفنية للقضايا الاجتماعية والتاريخية مبدأ البدائية وصفة التخلف والتدهور القيمي وفساد الذوق « الكثرة الغالبة من الأفلام الأمريكية تتجلى فيها بدائية الموضوع، وبدائية الانفعالات وهي في الغالب أفلام الجريمة البوليسية وأفلام رعاة البقر»[41] وتصاحب البدائية حسب سيد قطب كل مظاهر الإنتاج الصناعي والفني لان الأمريكي متخلف فنيا وليس له مؤهلات لإدراك الفن وجمالياته «الأمريكي بدائي في ذوقه الفني أو أعماله الفنية»[42] (المدونة، 1357).

وتبقى صفة البدائية الحاضنة لمظاهر التخلف والوحشية والبربرية مصاحبة وملازمة للحياة الاجتماعية للأمريكي حتى في اللباس، فالأمريكي بفساد ذوقه الفني عاجز عن اختيار ألوان طبيعية تُثير الإعجاب وتنفتح على المظاهر الجميلة «إن بدائية الذوق لا تتجلى في شيء كما تتجلى في تلك الألوان الصارخة الزاهية»[43] (المدونة، 1359). وصاحبت لفظة "البدائية" رحلة سيد قطب ولازمت كل المنجز الأمريكي علما وفنا وحياة اجتماعية، وحملت الدلالة رسالة توحي بكل قبيح، ترهيبا للمتلقي وتحذيرا له من كل مشاعر الإعجاب والاقتداء وراسمة صورة سيميائية ذهنيَّة لبديل متخيَّل تنتفي فيه الماديات والقساوة والقوة الجسدية، ويُكرِّس القيم والأبعاد الروحية للانسان.

ج – التمركز العقدي والمثاقفة المستحيلة

ينفتح الخطاب عند سيد قطب على انساق ثقافية ومعرفية وعقائدية مضمرة، تمنع عملية التواصل مع "الآخر" وتحيل عملية المثاقفة إلى استحالة منهجية بالتمركز حول

العقيدة وجعلها محورا بنائيا وتأسيسيا للغيرية، وتحولت بحكم هذا الإيمان الإعتقادي مرآة الغيرة وثقافة الاختلاف إلى عدمية فاقدة للوجود والكينونة. ويقوم الفكر النقدي الموضوعي على أساس رفض كل مظاهر المركزيات العرقية والثقافية التي تنتج أحكاما ذاتية تحدد درجات الارتقاء و الدونية وفق معايير خاصة تستند إلى مرجعيات عنصرية اقصائية، تجعل من "الأنا" مركزا لكل نشاط فكري ومعرفي ويتحول "الآخر" إلى هامش ساكن الحركة، مسلوب العقل والإرادة والتفكير، وقد تحرم هذه المقاربة "الآخر" من ابسط حقوقه في الاعتقاد والتذوق الفني والجمالي باعتبار تواجده خارج الفضاء البشري« حين تغلق البشرية على نفسها منافذ الإيمان بالدين؛ والإيمان بالفن؛ والإيمان بالقيم الروحية جميعا، لا يبقى هناك متصرف لنشاطها إلا في العلم التطبيقي والعمل»[44]

ويُشكِّل التمركز العقدي شكلاً من أشكال العقبات والمعوقات أما تحقيق المثاقفة الندية التي تنفتح على "الآخر" باعتباره نموذجا لثقافة الاختلاف، وفي مرآة المغايرة تنعكس صورة "الأنا" إنتاجا واستهلاكا، وهي تعبير عن كسر لجدار العزلة والخروج من الوحدة إلى التعدد، ومن الفضاء الثقافي الضيق إلى الأفاق الواسعة للثقافات والحضارات. والمثاقفة (L'Acculturation) هي تعبير عن التعايش الثقافي مع المختلف في تجلياته المتعددة والمتنوعة، وقد أصبحت ضرورة إن لم نقل حتمية في ظل الثورة المعلوماتية والطفرة التقنية في عالم الاتصالات وثقافة العولمة التي تجاوزت حدود التاريخ والجغرافيات، وحولت العالم الى فضاء مُنفتح على الغيرية.

خاتمة

إنّ خطاب سيد قطب في رحلته نحو أمريكا لم يكن مشروعا نقديا موضوعيا بقر ما كان رؤية أيديولوجية تجسد الرفض والإقصاء، فكشفت الرحلة في لغتها وبنيتها الفنية عن مشروع الأصولية الإسلامية ومعتقداتها في مقاربة الاختلاف والغيرية، فالغيرية صورة للجاهلية والضلال، بصرف النظر عن المنجزات العلمية والتقنية لأنها

تُمثِّل التعبير المادي والمتوحش، عن نفسية مريضة ومضطربة، ضالة وتائهة، عاجزة عن تحقيق السعادة والرخاء، الذي لا يمكن تحقيقه خارج الرؤية الإسلامية.

أسَّست رحلة سيد قطب إلى أمريكا أرضية للمركزية الإسلامية عامة وللتمركز العقدي السياسي الإسلامي خاصة، فهي لم تكشف عن مشروع أو رؤية جديدة تفكيكية للركائز المعرفية والثقافية للآخر، بل كانت رفضا وإقصاءً منهجيًا لمنجز حضاري مختلف بلغ القمة في التكنولوجيا و التقنية.

---

[1] – أبو الجمال محمد الطاهر بن عبد الرحمن الفاسي، الرحلة الابريزية إلى الديار الانجليزية، سنة 1276هـ – 1860م، تحقيق محمد الفاسي، مطبعة جامعة محمد الخامس، فاس، 1967، ص 19.

[2] – يحي بولحية، البعثات التعليمية في اليابان والمغرب، ط1، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، 2016، ص 581.

[3] – رضوان زيادة، كيفن جيه اوتول، صراع القيم بين الإسلام والغرب، دار الفكر، دمشق، 2010، ص 29.

[4] – محمد عابد الجابري، العقل الأخلاقي العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية، ط1، مركز *دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2001، ص 55.*

[5] - André Bridoux, Morale, Hachette, Paris, 1945, p124.

[6] - Hidetaka Ishida, égimes narratifs et récits de voyage au Japon (1890-1930). Le voyage comme «leçon des choses» et de la modernization, Genèses , Juin, Ne 35 *Année 1999, p 83.*

[7] – أبو الجمال محمد الطاهر بن عبد الرحمن الفاسي، الرحلة الابريزية إلى الديار الانجليزية، سنة 1276هـ – 1860م، تحقيق محمد الفاسي، مطبعة جامعة محمد الخامس، فاس، 1967، ص 13.

[8] – الطاهر مكي، سيد قطب وثلاث رسائل لم تُنشر من قبل، مجلة الهلال، العدد، 10، أكتوبر 1986، ص 124.

[9] - جيمس هِيْوارْث دون (James Heyworth-Dunne) (1904 - 1974) مستشرق بريطاني، درس في لندن، ثم أقام بمصر، تعلم في الأزهر، كان يتقن اللغة العربية والفارسية بالإضافة إلى العامية المصرية، أشهر إسلامه بالأزهر وتزوج من الممثلة المصرية روحية خالد، له العديد من المؤلفات في الشأن المصري منها «إلى أين تتجه مصر؟»، أو إلى «أين يتجه الإسلام؟» الذي صدر سنة 1933 وكتاب الاتجاهات الحديثة في الإسلام» سنة 1947 وكتابه الشهير «الاتجاهات الدينية والسياسية في مصر الحديثة» الذي أصدره سنة 1950.

[10] – سيد قطب، أمريكا التي رأيت في ميزان القيم الإنسانية (3) العدد 961، 3 ديسمبر 1951، السنة التاسعة عشرة. 12587.

[11] – محمد المنتصر الريسوني، سيد قطب ومنهجه في التفسير،ط1، دار الكلمة للنشر والتوزيع، المنصورة (مصر)، 2011، ص 33.

[12] - *يُنظر للتوسع حول النظام التربوي الأمريكي تاريخيا:*

Laurence Emile-Besse, « Le système éducatif américain », Revue internationale d'éducation de Sèvres, Éditeur Centre international d'études pédagogiques , Avril 2004.

[13] - بشير عبد الفتاح، أزمة الهيمنة الأمريكية، ط1، شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2010، 232.

[14] – سيد قطب، أمريكا التي رأيت في ميزان القيم الإنسانية (1) العدد 957، 5 نوفمبر 1951، السنة التاسعة عشرة، 214.

[15] – صدر التقرير الأول للرحلة في العدد 957 المؤرخ في 1951/11/05، وتلاه الجزء الثاني في العدد 559 بتاريخ 1951/11/19، وختمت الرحلة في العدد 961 المؤرخ في 1951/12/03.

[16] - *Des gouts et des couleurs, on ne discute pas*

[17] – سيد قطب، أمريكا التي رأيت في ميزان القيم الإنسانية (1) العدد 957، 5 نوفمبر 1951، السنة التاسعة عشرة، 1357.

[18] – خصصت منظمة اليونسكو العالمية يوم 30 من أبريل للاحتفال بموسيقى الجاز ووصفتها بالموسيقى التي كسرّت الحواجز بين الثقافات والطبقات الاجتماعية وقدَّمت فرصاً للتعايش والتسامح؛ وأداة تُتيح حرية التعبير وترمز للوحدة والسلام، كما أنّها تحفّز على المساواة.(صدر البيان في 26 أوت 2011.

[19] – *Arthur De Gobineau, Essai sur l'inégalité des races humaines, librairie De Firmin-Didot et Cie, Paris, p,185.*

[20] - *Gunther Schuller, L'histoire du JAZZ, le premier JAZZ des origines à 1930, Editions Parenthéses, 1997, Paris, p14.*

[21] – نادر كاظم، تمثُّلات الآخر، صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2004، ص 45.

[22] – المرجع نفسه، ص 213.

[23] – سيد قطب، أمريكا التي رأيت في ميزان القيم الإنسانية (2) العدد 559، 19 نوفمبر 1951، السنة التاسعة عشرة، 1301.

[24] – إميل بديع يعقوب، المعجم المفصل في دقائق اللغة العربية، دار الكتب العلمية، بيروت (د ت).

[25] - *(Dictionnaire, 469)*

[26] - *Bernadette Galloux-Fournier, Un regard sur l'Amérique : voyageurs français aux États-Unis (1919-1939), Revue d'Histoire Moderne & Contemporaine, tome 37, ne 2,Année 1990, p 31.*

[27] - *Bernadette Galloux-Fournier, Un regard sur l'Amérique : voyageurs français aux États-Unis (1919-1939), Revue d'Histoire Moderne & Contemporaine, tome 37, ne 2,Année 1990, p 316.*

[28] – سيد قطب، أمريكا التي رأيت في ميزان القيم الإنسانية (2) العدد 559، 19 نوفمبر 1951، السنة التاسعة عشرة، 1301.

[29] – المصدر نفسه، 1301.

[30] – المصدر نفسه، 1303.

[31] – المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[32] – المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[33] – المصدر نفسه، ص 1246.

[34] – جان جاك لوسركل، عنف اللغة، ترجمة محمد بدوي، ط1، المركز الثقافي العربي/ الدار العربية للعلوم، بيروت،2005، ص 14.

[35] – حسن مصدق، يورغن هابرماس ومدرسة فرانكفورت، النظرية النقدية التواصلية،ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء. 2005، ص 79.

[36] – المرجع نفسه، ص 86

[37] – (المدونة، 1305)

[38] – زينب العلواني، الأسرة في مقاصد الشريعة، قراءة في قضايا الزواج والطلاق في أمريكا، ط1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1434ه/2013، فيرجينيا، و.م.أ، ص 151.

[39] – وسام فاضل راضي، السينما الأمريكية والهيمنة السياسية والإعلامية والثقافية، ط1، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011، ص 05.

[40] - ينظر:

Louis Althusser, Idéologie et appareils idéologiques d'état, Positions, Editions sociales, Paris, 1970.

[41] - سيد قطب، أمريكا التي رأيت في ميزان القيم الإنسانية (2) العدد 559، 19 نوفمبر 1951، السنة التاسعة عشرة، 1359.

[42] – المصدر نفسه، ص 1357.

[43] – المصدر نفسه، ص 1359.

[44] - المصدر نفسه، ص 1247.

قائمة المصادر والمراجع:

1. سيد قطب، أمريكا التي رأيت في ميزان القيم الإنسانية (1) العدد 957، 5 نوفمبر 1951، السنة التاسعة عشرة.

2. سيد قطب، أمريكا التي رأيت في ميزان القيم الإنسانية (2) العدد 559، 19 نوفمبر 1951، السنة التاسعة عشرة.

3. سيد قطب، أمريكا التي رأيت في ميزان القيم الإنسانية (3) العدد 961، 3 ديسمبر 1951، السنة التاسعة عشرة.

المراجع باللغة العربية:

4. إميل بديع يعقوب، المعجم المفصل في دقائق اللغة العربية، دار الكتب العلمية، بيروت (د ت).

5. بشير عبد الفتاح، أزمة الهيمنة الأمريكية، ط1، شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 2010، القاهرة.

6. جان جاك لوسركل، عنف اللغة، ترجمة محمد بدوي، ط1، المركز الثقافي العربي/ الدار العربية للعلوم، 2005، بيروت.

7. وسام فاضل راضي، السينما الأمريكية والهيمنة السياسية والإعلامية والثقافية، ط1، العربي للنشر والتوزيع، 2011، القاهرة.

8. زينب العلواني، الأسرة في مقاصد الشريعة، قراءة في قضايا الزواج والطلاق في أمريكا،ط1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1434ه/2013، فيرجينيا، و.م.أ.

9. حسن مصدق، يورغن هابرماس ومدرسة فرانكفورت، النظرية النقدية التواصلية،ط1، المركز الثقافي العربي، 2005، الدار البيضاء.

10. – الطاهر مكي، سيد قطب وثلاث رسائل لم تُنشر من قبل، مجلة الهلال، العدد، 10، أكتوبر 1986.

11. يحي بولحية، البعثات التعليمية في اليابان والمغرب، ط1، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2016، الدوحة.

12. محمد عابد الجابري، العقل الأخلاقي العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، 2001، بيروت.

13. محمد قطب، هل نحن مسلمون، ط 6، دار الشروق،2002 ، القاهرة.

14. محمد قطب، جاهلية القرن العشرين، ط 12، دار الشروق، 1992، القاهرة.

15. محمد المنتصر الريسوني، سيد قطب ومنهجه في التفسير،ط1، دار الكلمة للنشر والتوزيع،2011، المنصورة (مصر).

16. نادر كاظم، تمثُّلات الآخر، صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2004، بيروت.

17. سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، دار الشروق، 1415هـ-1995، القاهرة/بيروت.

18. سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ط16، دار الشروق، 1423هـ/2002م، القاهرة.

19. سيد قطب، مقومات التصور الإسلامي، ط5، دار الشروق، 1418هـ/1997م، القاهرة.

20. رضوان زيادة، كيفن جيه اوتول، صراع القيم بين الإسلام والغرب، دار الفكر،2010، دمشق.

21. رضوان السيد، هيوارث دَن وسيد قطب والإخوان المسلمون، جريدة الشرق الأوسط، الأربعاء 04 رجب 1434 هـ - 15 مايو 2013 العدد 12587

المراجع باللغة الفرنسية:

1. *André Bridoux, Morale, Hachette, 1945, Paris.*

2. *Arthur De Gobineau, Essai sur l'inégalité des races humaines, librairie De Firmin-Didot et Cie, Paris, p,185.*

3. *Bernadette Galloux-Fournier, Un regard sur l'Amérique : voyageurs français aux États-Unis (1919-1939), Revue d'Histoire Moderne & Contemporaine, tome 37, ne 2,Année 1990,*

4. *Emmanuel Levinas, Humanisme de l'autre homme, Editions Fata Morgana, Paris, 1972.*

5. *Hidetaka Ishida, égimes narratifs et récits de voyage au Japon (1890-1930). Le voyage comme «leçon des choses» et de la modernization, Genèses , Juin, Ne 35 Année 1999.*

6. *Gunther Schuller, L'histoire du JAZZ, le premier JAZZ des origines à 1930, Editions Parenthéses, 1997, Paris.*